تطهير العقائد وتحرير العقول

أساس الاصلاح الاجتماعي

للأستاذ محمود أبو رية

انبعث فى السنين الأخيرة بين جوانب البلاد صيحات مختلفة تدعو كلها إلى الإصلاح الاجتماعى ، وتسابق من ينشدون الخير لبلادهم فرادى وجماعات إلى المساهمة فى ذلك الإصلاح . ولما كان كل فريق قد اتخذ لنفسه مذهباً خاصاً لا يشاركه فيه سواه ولم يذهب إليه بعد درس أو تمحيص ، فإن طرق العلاج قد تعددت ومذاهبه قد تفرقت . وقد وجد أدعياء الإصلاح بين زحمة هذه الفوضى طرقاً ميسرة ليظهروا بين الناس أنفسهم وينالوا منهم مآربهم فيقف الواحد منهم على رأس طريق يتخذه لنفسه بعد أن يفتلذ من جسم الأمة فلذة ليكون مرشداً لها وهذا هو كل همه فلا تجد له ولا لمن حوله من عمل بعد ذلك إلا دعاوى ينشرونها ومزاعم يبثونها

وهذه الطوائف هى التى تعرف بين الناس باسم الجمعيات ، وما هى فى الحقيقة إلا (فرق) قد زادت فى تمزيق الأمة وتشتيت شملها بعد أن أصبح صدر البلاد ضيقاً حرجاً بتلك الفرق التى تعرف (بطرق الصوفية)

وإن قيام هذه الفرق المختلفة بيننا وما يدب بينها من عقارب الشتآن وما أصاب الأمة بوجودها من داء التفرق ومرض التشيع ليعيد إلينا ولا جرم عهد الفرق الإسلامية التى ذر قرنها فى صدر الإسلام فكانت من أسباب ضعفه وذهاب ريحه

على أنك لو بحثت عن عمل لهذه الفرق المستحدثة لما وجدت إلا صيحات عن بعض الذكريات الدينية ترسل بين الناس الفينة بعد الفينة ويحسبون أنها مجدية وهى لا غناء فيها

هذا هو كل عملها فلا تراها قد طهرت من أدران الوثنيات ولا فكت عن العقول أغلال الخرافات ، ولا أصلحت من الناس ما غشيهم من سيء العادات ، ولا حسرت عنهم ما غمرهم من أمواج المنكرات ؛ بل أنك لترى علتنا الاجتماعية قد زادت واشتدت ، وأمراضنا الاجتماعية قد عمت وانتشرت ؛ حتى لقد أصبح جسم الاجتماع المصرى بهذه الفرق — القديم منها

وجماعة من المماليك والحاجب أبو جعفر أخو أستاذ الدار ومؤيد الدين محمد بن العلقمى فتلقاها بدر الشحنة فى المزرفة وعاد والجماعة معه وانحدرت هى فى شبارة[1] حملت لها إلى هناك فى جماعة من خدمها وجواريها وصعدت فى باب البشرى ليلاً وقد أعد لها بغلة فركبت واجتازت دار الخلافة وخرجت من باب النوبى إلى دار زوجها مجاهد الدين بدرب الدواب وهى الدار المنسوبة إلى أحمد بن القمى فنثر عليها خادم لزوجها ألف دينار عند دخولها الدار . وفى رابع جمادى الآخرة خلع الخليفة على مجاهد الدين بين يديه وقدم له مركوب بعدة كاملة فخرج وقبل حافره وركب من باب الأتراك ورفع وراءه أربعة عشر سيفاً إلى غير ذلك من الحراب والنشاب وأشهرت السيوف من باب دار الضرب وخرج معه جماعة من خدم الخليفة والحاجب أبو جعفر بن العلقمى أخو أستاذ الدار ومبشر الفراشين وحاجب ديوان الأبنية وغيرهم . وتوجه إلى داره فلما اجتاز بباب البدرية نثر عليه خادم من خدم الشرابى أربعة آلاف دينار . ولما اجتاز درب الدواب نثر عليه فى عدة مواضع من دار الأمير جمال الدين قشتمر ودار ابنته زوجة الأمير نصرة الدين كنج أرسلان وكان وراءه الأعلام والطبول والكوسات . وفى عشية هذا اليوم نفذ له أحد عشر طبلاً للخلق وأحد عشر قصعة وزوج سنج برسم طبل النوبة فى الصلوات الثلاث . وزفت عليه زوجته فاجتمعت له فرحتان فرح الإمارة وفرح العرس . ولم يبلغ أحد من أبناء جنسه مع حداثة سنه ما بلغ . ومن الغد عرضت عليه الهدايا من رقيق الترك والخدم والجيوش وأنواع الثياب والطيب والخيل وآلة الحرب وغير ذلك من جميع الزعماء وأرباب الدولة وخدم الخليفة وسائر المماليك ؛ ثم الوزير والشرابى وأستاذ الدار والدويدار الكبير ، ولم ينفذ له أحد شيئاً إلا وخلع على المنفذ على يده ثم ركب وبين يديه الأمراء والمماليك ورفع وراءه السلاح وقيدت بين يديه الخيول المجنونة وشهرت حوله السيوف وسعى الكيانية وبأيديهم الحراب والأطيار والجاووشية وبأيديهم الجوالكين الذهب والفضة وقصد دار الخلافة فخدم وعاد ثم ركب عشية هذا اليوم وقصد دار الخليفة فخدم وخرج وقت العشاء الآخرة فى الأضواء الشموع واستمر دخوله إلى دار الخليفة فى كل يوم بكرة وعشية على هذا الوضع[1]

(بغداد) يوسف يعقوب مسكونى

(١) ضرب من السفن

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطى المطبوع بعناية الأستاذ البحاثة الدكتور مصطفى جواد ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤

والحديث — كمثل رجل ألحت على جسمه العلل وانتابته الأمراض فسعى لمداواته الطبيب النقريس والدعى الجاهل ، هذا ، يدس له ما يضره ، وذاك يقدم له ما ينفعه ؛ ووراء هذا وذاك أولياؤه وأقرباؤه يدخلون عليه من كل باب يحملون إليه من مختلف الهدايا ما يظنون أنه من دوائه ، وما هو فى الحقيقة إلا من بلائه ، فلا يلبث هذا المسكين أن تشتد عليه الأدواء ، وأن يصبح فى حال لا يرجى له معها شفاء

مما لا ريب فيه أن جسم الأمة مريض بعلل شتى قد غيرت القرون عليها حتى أعضل أمرها ، ولكن مما لا خلاف فيه كذلك أن لكل داء دواء يستطب به ، على أن يتولاه بالعلاج طبيب نطاسى يقوم عليه وحده ، ولا يشاركه فى تمريض المريض غيره

وإذا كنا ندعو بكلمتنا هذه إلى اتباع تلك الطريقة القويمة التى لا يؤخذ بأسباب أى إصلاح إلا باتباعها ، فإنا نذكر قومنا بأن لكل إصلاح (أساساً ثابتاً) يقوم عليه ، وأساس الإصلاح الاجتماعى — بل والدينى — فى بلادنا إنما يقوم على (تطهير العقائد من دنس الوثنيات ، وفك العقول من أغلال الأوهام والخرافات) ؛ وهذا الأساس لم نبتدعه من عندنا ، ولا هو ببدع جديد لنا ، وإنما وضعه من قبلنا الأنبياء المرسلون والزعماء المصلحون . وبحسبك أن تعلم أنه لما قام رسول الله (ص) بدعوته جعل همه كله فى القضاء على البدع والوثنيات التى تدسست إلى العقائد فأفسدتها ، والأوهام والترهات التى غشيت الأفهام فكبلتها ، وقد جعل هذا الجهاد أساس دعوته فلم يأت للناس بشىء من التكاليف الشرعية ولا أمرهم بأداء فرض من الفروض الدينية ، إلا بعد أن خلصت العقائد من لوثاتها ، ونشطت العقول من أغلالها ، وأصبحت الأمة كلها على دين واحد من التوحيد الخالص . وأنه صلوات الله عليه لم يفعل ذلك إلا لأن التوحيد الخالص هو كما قال الأستاذ الإمام : « كمال الإنسان ، وأنه إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل »

وإذا أنت رميت إلى تاريخ (لوثر) مصلح أوربا العظيم تجد نور هذه الحقيقة أمامك ساطعاً ، إذ أنه بعد أن قام بدعوته وطهّر المعتقدات مما كانت قد تلوثت بها ، دخلت أوربا فى طور جديد من الإصلاح ظل يؤتى ثمره حتى صارت على ما هى فيه آلات مدنية وحضارة وعزة وقوة . ولقد قال توماس كارليل فى تاريخ لوثر فى كتاب الأبطال : إن على دعوته قد قامت دعائم الدستور الإنجليزى وبرلمانه والحرية الأمريكية واستقلالها والثورة الفرنسية ونتائجها

إن كثيرين ممن يتصدون للاصلاح (الكلامى) يستهينون بأمر البدع والخرافات ، وبعض هؤلاء يجعل من إصلاحه أن تظل هذه العلل تنخر فى عظام الأمة ، لأنها (بزعمه) مما ينفع العامة . ولو هو تدبر الأمر بفكر الحكيم لعلم أنه ما أنهك جسم الأمة ، ولا قضى على كل فضيلة فيها إلا تلك البدع والخرافات .

ولقد أصاب السيد جمال الدين الأفغانى فى قوله : « إن خرافة واحدة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن ، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق »

وإن للأستاذ الإمام محمد عبده لحكمة جليلة يجب على كل مصلح أن يتبعها ويسير على هداها وهي : « إن نجاح هذه الأمة إنما يكون بحسن التربية ، ولا سبيل إلى التربية فيها إلا بإصلاح معتقداتها وتصحيح ملكتها حتى تستقيم بذلك أعمالها وتصلح أحوالها »(١)

ونشيخه السيد جمال الدين منهج فى إصلاح الاجتماع وإسعاد الأمم جعل الأمر الأول منه « صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ، ويمنعه من كشف نفس الأمر . وأول ركن يبنى عليه الدين الإسلامى (هو) صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام ، فمن أهم أصول العقائد أن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد فى خلق الفواعل والأفعال ؛ وإن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد علوياً كان أو سفلياً بأن له فى الكون أثراً بنفع أو ضر أو إعطاء أو منع أو إعزاز أو إذلال »

ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به هذا السيد بمصر أن « وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر »(٢)

ولقد كان رحمه الله فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور »(٣)

هذا هو أساس الإصلاح الذى يكون كل ما يبنى عليه قوى

(١) ص ٦٠٩ من الجزء الثانى من الجزء الثانى من تاريخ الامام
(٢،٣) ص ٣٢ ، ٣٢ من الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام